المشكلة* . . . !

للأستاذ كامل محمود حبيب

دخل الشاب مستأذناً ؛ فخلع طربوشه ، وألقى عصاه ، ثم جلس مبهوراً تتتابع أنفاسه ، ويزدحم الكلام على شفتيه ، لا يكاد يبين معنى من معنى ، أو يستقر خاطره على شيء ؛ فما استبنت إلا قوله يختم الحديث في كلمات متقطعة منهوكة : « نعم ، وقعت المشكلة ! وقعت المشكلة ! فأين أجد الخلاص ؟ » ، وكنت قد وقفت عند قول أستاذنا الرافعي في مقاله بمجلة «الرسالة الغراء : » « ووقعت المشكلة . . . » فعرفت ما يعني صاحبي ، وهو كان صاحبَ هذا الحديث ، ومحورَ رحاه ، على أن الرحى لم تطحن إلا قلبه هو ، وكان قد كتب إلى أستاذنا يطلب الخلاص ، فأين رأى الخلاص من نُصح طبيبه . . ما أمرّ الدواء لو يجدى ، وما أقسى الطبيب . . ! وقلتُ في نفسي : « وا أسفا لهذا الشاب !! أثقُل عليه أن صفحة من صفحات قلبه قد نُشرت ، وهو كان يحمل الهم كله في صدره فما يثقل عليه ؟ ويل للشاب من الشيخ ، فذلك يتكلم بوجدانه وعاطفته وقلبه ، وذاك يتكلم بعقله وتجاربه وفلسفته . فأين يلتقيان ؟

ثم استوى الشاب في مجلسه وقد اطمأن قليلاً وسرّى عنه بعض ما كان فيه من اضطراب وقلق ، ثم قال : « أترى ما فعل بي أستاذنا ؟ لقد كنتُ – بادىء الرأى – في عينه مهذباً ، متعلماً . ذا رأى وبصر ؛ فما هي إلا دورة الكلام فإذا أنا ساقط ، مرذولٌ ، ضعيف الرأى ! أفترى على الشاب من حرج أن يحلق في سمائه ، يفتش عن قلبه الطائر حتى يرى ضالته . . ؟ والطائر الفرِيد – يا صديق – ينقب عن أنثاه التي تساكنه عُشَّه ، وترعى أفراخه . أفيكون لأبيه أن ينتقى له أنثاه من بين عصافير الغاب ، أم تراه هو . . . ! أو تحسبها هي تستقر اليه إذا لم ترَ في ظل جناحه الرأفة والحنان والحب ! أرأيتَ يا صديق ؟ أرأيت هذا الطير ، يطير عن أنثاه إلى غيرها ، وهو نفسه الذى تملّقها ، وفتنه ما فيها من أنوثة وجمال ؛ وهو نفسه الذى اختارها لتشاركه حياة الطير ، وزقّها وزقته ، وبادلها وبادلته الحب والحنان ؛ أم كان ينتقص من حريته ، ويسلب رأيه لو كان تعلم . . . ؟

إن الذى تعلم منا ، قد تعلم ليمسك بمفتاح القيد الذى ضُمتْ به إحدى رجليه إلى الأخرى ، وشُدتْ إحدى يديه إلى الثانية ، وماذا يكون وراء العلم إن لم يكن هذا ؟ . وإذا كان الرجل يقول : « هذا أبي ، وتلك أمي ، وهؤلاء أهلي » لينتسب اليهم ، أفيخرج عن أهله إن هو قال : « وهذه زوجتي ؟ » وإذا كنتُ رجلاً تنفذ إليه المرأة بين الشيطان والحيوان منه ، ويصده عنها الرجل الذى في عقله ، أفكنتُ غيرَ الرجل الذى يريد أن يتمم القصة التي أتمها الله لآدم بحواء ؟ وهل قال الله لآدم : « هذه متمناة عليك ؟ » أم قال الملك الحب : « ضع سحرك ، وابذرِ لغرسك ؟ » فهمّ آدم ليعانق حواء ، وهمت هي لتعانقه ، فبدت الطبيعة أجمل ما تكون في عين رجل وامرأة ، ورأى بعين الحب التي تشع نظراتها من القلب ، وهو كان يرى بعين الجسد فما وراء نظرته معنى ولا عاطفة . ثم خلق من حبهما شاعراً ، وأديباً ، وفيلسوفاً ، وعبقرياً و . . . وعاشقاً وعاشقة

قلتُ : ويْ ! كأنك قد طرت من الدنيا فلم تهبط إلاّ في الفردوس ؛ كأنك لا ترى أنك في حجرة إن لم تكن ضيقة فهي ليست بالواسعة !

* * *

واندفع الشاب في خياله ، وكأنه أراد أن يجمع إلى كتبه التي يطالعها ؛ ويرى الجمال في صفحاتها ، صفحة أخرى من جمال الطبيعة ، وثالثة من جمال المرأة ؛ وظن الجمال في عقله عند الكتاب ، وفي نظره تحت ظل شجرة وارفة على ضفاف الوادى ، في قلبه عند امرأة جميلة يميل اليها ويحبها ويرافقها إلى حيث يشبه الطائر الذى تحدّث عنه ؛ وفي أذنه عند زقزقة العصافير ، وفي حديث هذه الفتاة التي يزعم عندها الجمال والرقة والعقل ؛ وفي شمّه عند نسيم الصباح وشذى هذه المحبوبة التي عرفها وهيّمها وهيمته ، وخُيل إلىّ أن تعاويذها قد فعلت فيه ، وأن ثارها قد نالت منه ، وأنه قد أسلس لها وانقاد ، فقلتُ : أما أنت

---

* جواباً على مقالة الأستاذ الرافعي) للشكلة) المنشورة بالعدد ١٢٣

منها فكالذى نُوّم فهو يسير على غير ارادته ، أو سُحر فهو ينظر بغير عينيه ، أو الثالث فهو يمشى فى غير طريقه ؛ وإن كان أستاذنا قد قال : فيا علك أن يرفع هذا السحر عنك ، ولكنّ فى كلماته سحراً من نوع آخر . . .

قال : والذى يذهب بعقلى أن يقول الناس : إنك مسحور أو بك لوثة ؛ وقد تعلمت – فيا تعلمت فى حياتى – أن أفكر بعقل الفيلسوف ، وأن أطير فى سماء الخيال إلى حيث أقع ؛ ولئن كان الخيال قد أضر بى قليلا ، إنه لقد شبّ معى بمقدار ما شب عقلى معى ، فكان عقلى وخيالى ، ثم كانت حياتى وكلها دراسة عميقة فلسفية – فحجب عقلى خيالى حيناً ، ثم عاد خيالى للظهور مع هذه ، ولكنه لم يحجب عقلى ، وكانت هى عقلا إلى عقلى ، ولبست خيالاً إلى خيالى ؛ فكان عقلى أولاً ثم خيالى الصغير ، وكانت تقول : « أنا لك بعد عملك ومستقبلك ، ولست لك إلا أن تكون رجلا فذا » فتدفعنى بكلماتها وقلبها وعقلها إلى المثل الأعلى . فيا ضيعة الأمل إن خاب هذا المثل ، ورُددتُ إلى منزلى لأرى فيه مصيبتى !! وياخيبة الرجاء إن صرتُ كذلك الحداد أو النجار أو الحوذى ، أو ... أو غيرهم ممن لا يرون فى الحياة إلا أنها اللقمة والثوب والمأوى ، ثم ... ثم ذلك الضجيج البيتى الذى يصبح فيه هو وزوجته وعمى ، والذى يشب عليه أبناؤهما فيأخذون من سوء الخلق ، وضعة الأخلاق ، وسفالة الطبع ، والشقاق ، والتنابذ ، مما رأوا عليه أبويهم

إن أستاذنا ليقول : إنها فتاة الشعر والخيال ، وما هى كذلك ، وما قابلتها مرة ، أو حاولت ذلك إلا بعد أن أخلع عنى خيالى ، لأخاطبها بلسان الفيلسوف ، وعقل الحكيم ، وكم أردت أن أقول لها : « أى فتاتى ... ... » لأندفع معها فى غزل رقيق ، فكانت تنظر إلى بعين تقول منها : « ليست هذه لغتنا ... » فأرتد لأقول : « ولقد قرأت ... ... » ثم أخلو لنفسى لأشبع رغبتى فى الحديث الآخر ... بينى وبين نفسى ... !

قلت : أفترى أن الفيلسوفة العالمة تستطيع أن تكون زوجاً وربة دار ، وأن تكون أمّا ومدبرة بيت ؟ وهل تراها تنشئ لك الحياة التى قدّرتها فى خيالك ؟ إن الحياة – ياصديقى – شىء غير هذا كله ، وإنك لمن بيت فيه الدين والاحتشام والشهامة ؛ أفليس من ذلك كله أن تمسك عليك زوجك التى اختار أبوك ، وأن تمنحها من نفسك ما يمنح الزوج ؟

قال : إنك تنحو منحى أستاذك . أفتريد أن تضيف إلى هموى همّاً آخر ، وأنا جئتك أستعينك على همى ... ! لقد كان أستاذك فى مقاله كالذى ينزع سكيناً هو أغمدها فى صدرى ليداوى جُرحاً هو الذى بلغ به هذا العمق العميق ، حتى إذا ما التأم أو كاد ، عاد فنكأه ، ثم عاد ثالثة ليداويه ... ! وصاحبتى التى اصطلحنا عليها لم تكن منى إلاّ بمنزلة النظار من عين الأعشى ينظر من خلاله الى هذا العالم فيرى ما يراه ذو العين الصحيحة ؛ ولم تكن من قلبى إلا بمنزلة الاطمئنان من قلب المضطرب ، ولم تكن من عقلى إلا بمنزلة الطبيعة تفتح فيه طرقاً معبدة ؛ ولم تكن من حياتى إلاّ بمنزلة الصديق الوفىّ . ولعلك تذكر يوم أن كتبتُ اليك وكنتَ بعيداً : « لقد أبللت من مرضى ... » . كان أخى فى منأى عنى ، ووقفتْ زوجتى بجوار سريرى ، لا تعرف كيف تصُبّ الدواء فى فنجانة ، ولا متى يكون . وهفتْ نفسى إلى التى أحبها حين خُيِّل الى أنى أموت فكتبتُ اليها وألححتُ ؛ فزارتنى على استحياء ، ثم ألححتُ فوقفتْ منى موقف الطبيب من مريضه ... ثم كتبتْ الى أهلى تقول : « إن ابنكم يحتاج الى من يقوم عليه ... » كتبت ذلك حين رأت أن فى زيارتها شيئاً ، ثم ... ثم لم تعُد

ولما أبللتُ وخرجتُ لقيتها قالت : لقد كنت قاسياً ، وما استطعتُ أن أرفض حين رأيتُ الخطر . وما كان أجدر بى وبك ألا نقطع هذه المرحلة . يالشقائى بك ! ويالشقاء زوجك بك ! لقد أصبت قلبين بسهم .

وقالت لى وقلتُ لها ، ثم افترقنا ، وأردت أن أهب إلى التى فى دارى بعض نفسى فأشعرها بأننا أنثى ورجل ؛ فارتد قلبى عنها ، ثم أرغمته فارتد أخرى ، وأظلم منزلى من بهجة العزوبة ومن جمال الزواج معاً . وأصبحت الدار التى جعلتها لسكناى هى جحيمى ، ففررتُ إلى الشارع وإلى عملى ؛ وشعرت الأخرى أنها لا تملك فى هذا المنزل ما تملكه الزوجة ففرّتْ الى حجرتها والى خادمها ؛ واعتزلتها ، واعتزلتنى ؛ ورجعنا إلى ما كان ، حين كان بيننا (الباب المغلق) سنوات تسعاً

قلت إن أولى الناس باحسان المحسن ، هو القريب ، فالجار الجنب ، فالصاحب بالجنب ؛ وقد عرفتك محسنا ، وهذه من ذوى قرابتك ، وأقرب اليك من جارك ؛ أفلا تكون محسناً معها ؟

قال : لقد كنتُ أستطيعه لو وجدت النور . إنها لظلام وظلام ، وظلام ... أما الظلام الأول ففي منزلي ، وأما الظلام الثاني ففي قلبي ، وأما الظلام الثالث ففي عقلي ... !

* * *

وسمتَ وصمتُ ؛ وكان كأنه يسترجع الذكرى ، ذكرى أيام خلت ، ذاق فيها حلاوة العيش ، وسعادة الرضى ، وكأن حياته بماضيها ومستقبلها قد جمت في أشهر كانا فيها ...

ثم التفت إلىّ كالمذعور وقال : أما أنني كنتُ معها غير الرجل الذي فيه الرجولة فقط ، وأما أنها كانت مني غير الأنثى التي فيها الأنوثة فقط — فلا . إلاّ أنها كانت توحي إلىّ بكلام هو من لغة السماء ، وتصب فىّ حياة هي حياة أهل الخلد ؛ وكنتُ إلى ذلك مطمئناً وقد اطمأنت هي أيضاً اليه . وقنعتُ وقنعتْ .

والناس يرون في الحب الفاحشة ولا يرون فيه المجد . والذي يعيش في حياته بلا حب كالشجرة العانس . ليس إلاّ هي في الحديقة ، ولا سبيل الى أن تجد الشجرة الأخرى . . فلا هي بالقاحلة الجافة ، ولا هي بالمثمرة ؛ ولكنها بارتفاعها وفقرها تقول : « أنا . . . أنا الموجود الذي لا وجود له . » فما أسرع ما تمتد اليها يد لتقتلها ؛ وحين ترى نفسها وقد نالتها فأس الحطاب تقول « . . أنا . . ويلى ! . . أنا الضائعة » . ان الذي لا يحب الجمال ولا يلتمسه في امرأة ؛ ثم يفاخر غيره بذلك ، إنه لا يقول للناس « أنا لا أحب ولا أقدِّر الحب . » بل يقول « أنا . . ما أنا في الأحياء ! . . أنا . . أنا ميت الأحياء » والضعف الذي يراه في الذين عرفوا الحب وآمنوا به ، إنما هو ضعف في إنسانيته هو لا في إنسانيتهم ، والذي لا يدرك الجمال في المرأة لا يدركه في الطبيعة ؛ لأن المرأة هي المنظار المكبر الذي ينظر الرجل من ورائه إلى ما حوله . وإلا فهو لا يرى موضعه من الأحياء . . »

أنا . . أنا انسان ولا أستطيع أن أقول إن كلّ شيء جميل ، وإن كان في القبح جمال فقد يكون في الجمال قبح ؛ ولكن هذه التي يقولون عنها انها جميلة ... ثم أرغموني عليها وأرغموها علىّ لا أرى في قبحها جمالاً ولا في بؤس الحياة معها فناً ...

قلت : ويك : لقد اصطرعت في نفسك عوامل رانت على بصرك وتركتك في بيداء من الوهم والخيال ، كأنك تريد أن تخلع ثوبك ؛ وقد يكون في الذي تخلعه جمال !

قال : أما أن أظلّ شريداً ، فلا . وأما أن أحتمل مع عبثي عبثاً آخر ، فلا . وأمّا أنني أهتم بنفسي ، فنعم . وماذا يضيرني ويضير هذا العالم بما فيه أهلي وأهلها إذا لبست فوق ثوبي القديم ثوباً آخر ، فيخفى عن عيني وعين الناس هذا القبيح الذي كنت ألبس ؟

* * *

ثم تركني ، وأنا أقول : واأسفا لهذا الشاب ! ! أثقُل عليه أنّ صفحة من صفحات قلبه قد نُشرت وهو كان يحمل الهمّ كله في صدره فما يثقل عليه ؟ ويلٌ للشاب من الشيخ فذلك يتكلم بوجدانه وعاطفته وقلبه ، وذاك يتكلم بعقله وتجاربه وفلسفته . فأين يلتقيان !

كامل محمود حبيب

وزارة الأوقاف

وزارة الأوقاف تشهر في المناقصة العامة عملية توريد الزيوت اللازمة لفروعها بجهات مختلفة في خلال سنة حسب الشروط والمواصفات الموجودة بقسم الري والميكانيكا وفي المأمورية المذكورة وتقبل العطاءات لغاية ظهر يوم ١٠ ديسمبر سنة ١٩٣٥ داخل مظاريف تقدم باسم معالي الوزير (قسم السكرتارية) ، وكل عطاء لا يكون مصحوباً بتأمين ٢ في المائة من قيمته لا يلتفت اليه ، والوزارة حرة في قبول أو رفض أي عطاء بغير بيان الأسباب

ولمقدمي العطاءات الحق في حضور جلسة فتح المظاريف يوم ١١ ديسمبر سنة ١٩٣٥ الساعة العاشرة صباحا بسراي الوزارة